تأثير الفلسفة الاشتراكية في شعر محمود درويش

د. سيد مزمل رشيد

المقدمة

كانت قضية الحرية والعدالة الاجتماعية والوحدة العربية وقضايا التحرر العالمية من أهم القضايا التي التزمها أدباء العرب منذ النصف الثاني من القرن العشرين إلى اليوم وبذلك صارت مهمتهم الحقيقة هي النقد والمعارضة والعمل على تغيير المجتمع والعالم عامة والعالم العربي خاصة وفي فلسطين انضم معظم الشعراء إلى الحزب الشيوعي أمثال محمود درويش وسميح القاسم لأنهم يؤمنون بالاشتراكية كأداة لتحرير الإنسان من الظلم والصراع الطبقي واتخذوا لها نهجا مقاوميا ينعكس في أعمالهم.

قبل أن نعالج تأثير الفكر الاشتراكي في شعر محمود درويش لا بد لنا أن نبين كيف انتشرت هذه الفلسفة في البلاد العربية ومن هم الذين ساهموا في انتشار هذه الفلسفة، كما صرح د. أحمد أبو حاقة قائلا:

"تعود بذور الاشتراكية في العلم العربي إلى أواخر القرن التاسع عشر وقد ظهرت لدى فئة قليلة من المفكرين الذين تثقفوا ثقافة أوروبية فاستهوتهم بعض آراء الاشتراكين الأوربيين التي تتخلص في أن المجتمع يكون أكثر عدالة وازدهارا لو نظم على أسس اشتراكية. وأن البشر يعيشون في سلام وئام إذا تحققت الديموقراطية الاجتماعية التي تقوم على إنصاف الطبقات وعلى المشاريع التعاونية الجماعة في ظل المساواة والحرية وتكافؤ الفرص"[١]

كما يقول في موضع آخر:

"وكان من أوائل المفكرين الذين نادوا بمثل هذه الآراء في العالم العربية طبيب لبناني الأصل عاش في مصر، يدعى شبلي الشميل (١٩٦٠-١٩١٧م) نادى بالاشتراكية

---

١. د. أبو حاقة، الالتزام في الشعر، دار العلم للملايين، ص: ١٧٩-١٨٠

والعلمانية والتطورية، وأثارت كتاباته جدلا ونقاشا حادا بينه وبين المفكرين المسلمين أمثال محمد عبده ورشيد رضا وتلاميذهما. وفي مطلع القرن العشرين برز مفكر اشتراكي آخر في مصر هو سلامة موسى (١٨٨٧-١٩٥٨م) ونشر كتابا عام ١٩١٣م عن الاشتراكية"[١]

هكذا انتشرت الاشتراكية في العالم العربي وجدير بالذكر ظهر في مصر مفكر اشتراكي هو مصطفى حسين المنصوري (١٨٩٠) الذي ألف كتابا بعوان "تاريخ المذاهب الاشتراكية" وشرح في هذا الكتاب ما استطاع أن يطلع عليه من هذه المذاهب.

ولكن الحقيقة هي أن الاشتراكية لم يكن لها تأثير كبير في الفكر العربي لأن المجتمع العربي لم يظل يتمسك بدواعي الدين الحنيف وظل العلماء المسلمين يطّلعون مجتمعهم عن النواحي السلبة والمفسدة في هذه الفكرة وألفوا الكتب في رد الفلسفة الاشتراكية كما كتب عبد الكريم الخطيب "الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين" كما كتب مناع الفطان "موقف الإسلام من الاشتراكية" و"نظرية التملك في الإسلام" والكتب الأخرى التي نجد على رد هذه الفلسفة.

تأثير الاشتراكية على محمود درويش:

في بداية الستينيات انضمّ محمود درويش إلى الحزب الشيوعي (راكاح) وتركت هذه الفلسفة الجديدة أثرا عميقا على شعره. ويقول درويش عن هذه الحقيقة قائلا:

"وصرنا نقرأ مبادئ الماركسية التي أشعلتنا حماسا وأملا. ويعمق شعورنا بضرورة الانتماء إلى الحزب الشيوعي الذي كان يخوض المعارك دفاعا عن الحقوق القومية، ودفاعا عن حقوق العمال الاجتماعية وحين شعرت إني أملك القدرة على أن أكون عضوا في الحزب دخلت إليه في عام ١٩٦١م. وترك هذا الانتماء آثار حاسمة على سلوكي وعلى شعري"[٢]

---

١. المصدر نفسه، ص: ١٨١

٢. د. رقية زيدان، أثر الفكر اليساري، ص: ٥٠

كان محمود درويش يفتخر على ذلك وهذا الفخر يتجلى في قصيدته الشهيرة "بطاقة هوية" يقول فيها:

"أنا من قرية عزلاء منسية

شوارعها بلا أسماء

وكل رجالها في الحقل والمحجر

يحبون الشيوعية

فهل تغضب

سجل أنا عربي"[1]

يتبين بهذه الاقتباس والأشعار أن محمود درويش كان متأثرا بأفكار الاشتراكية إلى حد كبير ويبين هذه الأفكار في قصائده بصراحة ولكن الأديب الناقد رجاء النقاش لم يرضه هذا التصريح فيقول:

"فهل يكفي هذا كله لكي نقول إن الالتزام الشيوعي هو الأساس الفكري والوجداني الذي يحول عليه إنتاج محمود درويش الشعرية! كلا بالطبع أن مثل هذا المسائل لا تدخل في نطاق الميول والرغبات ولكنّها مسألة دراسة موضوعية معايدة. فشعر محمود درويش يكشف بوضوح عن القضية الأساسية إلى يعالجها هذا الشاعر والتي تملأ قلبه ووجدانه وهي قضية الأرض العربية والانتماء العربي. والواضح في شعر هو التعبير عن هذه القضية أولا قبل كل شيء"[2]

وقد اعترف بنفسه أنه متأثر بأفكار الشيوعية والقصائد الأخرى تدل على ذلك أنه كان متأثرا بهذه الأفكار ونجد أيضا في قصائده انتمائه إلى الطبقة العاملة والانتماء إلى الطبقة العاملة هي من أساسيات هذه الفلسفة كما تقول د. رقية زيدان:

وتتزاحم صور الأرض والحقل والفلاحة والحراثة في عدة مواقع لدى درويش شعرا أم نثرا ويجدر درويش هويته بأنه من الطبقة العاملة ومن أسرة المحراث ومن طبقة

---

[1]. رجاء النقاش: درويش وارض لمحتلة، ص: ٨٠

[2]. المصدر السابق، ص: ٨١

الفلاحين"[1]

يقول درويش في قصيدة التالية:

"أبي من أسرة المحراث

لا من سادة نجب

وجدّي كان فلاحا

بلا حسب .. ولا نسب

يعلمني شموخ الشمس قبل قراءة الكتب

وبيتي، كوخ ناطور

من الأعواد والقصب

فهل ترضيك منزلتي

أنا اسم بلا لقب "[2]

وجدير بالذكر أن معظم الأقلية العربية الفلسطينية داخل إسرائيل كانت تنتمي إلى الريف وتعيش في حالة من البؤس والفقر ومن جرّاء الظروف الصعبة التي لاقاها الشعب الفلسطيني انضم هؤلاء الشعراء إلى الأحزاب اليسارية ومالوا إليها. يصور محمود درويش حال العامل والفلاح قائلا في قصيدة "ولادة"

"كانت أشجار التين

وأبوك

وعيون الفلاحين

تبكي في تشرين

المولود صبي

ثالثهم

والثدي شحيح

---

[1]. د. رقية زيدان، أثر الفكر اليساري، ص: ٥٤

[2]. محمود درويش: ديوان أوراق الزيتون، ص: ٨٠

والريح

ذرت أوراق التين"[١]

وأن من مبادئ الفكر الشيوعي، تعزير القيم الإنسانية من حرية ومساواة وإخوة عدالة الاجتماعية، ومحاربة الرجعية والسلم والسعادة والاتحاد الذي دعا له لينين (Lenen) في مقلته الشهيرة "يا عمّال العالم اتحدوا" ويقتبس محمود درويش هذه المقولة الشهرة في قصيدته" تلك صورتنا"

"لأن الله لا يأتي إلى الفقراء إذ يأتي بلا سبب

ذهبنا نحو يافا – الأمنية

يا أصدقاء البرتقال – الزينة اتحدوا

فنحن الخارجين على .. الخارجين على العبير

ضد السماء التحكم الفقراء" [٢]

ومن مميزات الفكر اليساري أيضا: تشويه الرأسمالية ومناصرة الطبقة العاملة وإبراز صراع الطبقة الكادحة ضد الرأسمالية، والإقطاع، ومن ثم التبشير بالانتصار الماركسية، ويمتد مفهومه أوسع وأشمل، مناصرة الإنسان ضد قوى الاستلاب والاستغلال والقهر ولهذا أكد "لينين" انتصار الماركسية في تقريره أمام "المؤتمر الثاني للمنظمات الشيوعية لشخوف الشرف عام ١٩١٩م حيث قال:

"إنّ الثورة الاشتراكية لن تكون لا كليا ولا بصورة رئيسية عبارة عن نضال البرولتيار الثورة في كل بلد ضد برجوزيتها[٣] بل ستكون نضالا تقوم به جميع المستعمرات والبلدان التابعة بلإمبرالية العلمية"[٤]

---

١. محمود درويش: ديوان عاشق من فلسطين، ص: ١٠٤

٢. د. رقية زيدان: أثر الفكر اليساري، ص: ١٣٧

٣. البرجوازية هي طبقة اجتماعية ظهرت في القرنين ١٥ و١٦ تمتلك رؤوس أموال والحرف، كما تمتلك كذلك القدرة على النتاج والسيطرة على المجتمع ومؤسسات الدولة للمحافظة على امتيازاتها ومكانتها بحسب نظرية كارل ماركس.

٤. د. رقية زيدان، الفكر اليساري. ص ١٣٧

لقد عمد شعراء المقاومة إلى معاداة الرأسمالية وتشويهها وطمسها من منطلق طبقي اجتماعي يقول درويش في قصيدة:

"نسير نحو عيوننا .. نسير ضد المملكة

ضدّ السماء لتحكم الفقراء

ضد المحاكم الموتى

ضد القيد قوميا

وضد وراثة الزيتون والشهداء

نحن الخارجين من العراة لتلبس الأشجار أثوب السماء

نسير ضد المملكة"[١]

ولقد اتخذ محمود درويش موقفا ثوريا من قضية وطنه ومن أجل كرامته ضد الاحتلال والاستبداد ومن أجل تحرير الأرض والإنسان ومن كل ما يملك من طاقاته الثورية الخلاقة والقدرة والتمرد والمواجهة.

ومحمود درويش حينما طرأت رسالته الشعرية الثورية ضد الظلم والاستبداد وناصر الطبقة المسحوقة والطبقة الكادحة والمستضعفين في شعبه وشعوب العالم، فحوصر من قبل اليهود ثم نفي. وهكذا درويش يلتحم ويتماثل مع فكرة الصلب والقيام، التي تنبأ درويش بها وهي الانتفاضة والثورة، وهو الحلم في تقرير المصير وقيام الدولة الفلسطينية ويقول درويش في قصيدة "المزمور الحادي الخمسون بعد المئة"

"أورشليم! التي ابتعدت عن شفاهي

المسافات أقرب

بيننا شارعان، وظهر إله

وأنا فيك كوكب

---

١. سعيد بن ناصر الغامدي , الانحراف العقدي في الأدب الحداثة وفكرها. المجلد الأول , دار الأندلس الخضراء , المملكة العربية السعودية ص ١٣٢

كائن فيك كوبي بجسمي المعذّب

يسقط البعد في ليل بابل

وانتمائي إلى حضرت الموت حق

وبكاء الثبابيك حق

وصليبي يقاتل"[١]

هكذا نستطيع أن نقول إن إنتاج محمود درويش التزم فيها لقضية الفلسطينية وقضايا شعبه وكان للفكر اليساري أثر بليغ في صفحات شعر هو تعديد في بداية الستينيات حتى السبعينيات. والتزم محمود درويش بقضايا الطبقة العاملة المسحوقة ويناصرها على القيم الماركسية.

المصادر والمراجع

١- سعيد ناصر الغامدي، الانحراف العقدي في الأدب الحداثة وفكرها , المجلد الأول , دار الأندلس الخضراء , المملكة العربية السعودية

٢- محمود درويش. العصافير تموت في الجليل، دار العودة للنشر الالكتروني بدون الزمان

٣- د. رقية زيدان – أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني شعر محمود درويش ,سميح القاسم، الناشر دار الهدى كفرقرع، الطبعة الأولي

٤- رجاء النقاش , محمود درويش شاعر أرض المحتلة , دار الهلال , الطبعة الثانية

٥- محمود درويش. ديوان أوراق الزيتون، الطبعة الثانية، مكتبة الصحافة الالكترونية , فلسطين

٦- محمود درويش. ديوان عاشق من فلسطين. رياض الرئيس، المكتب والنشر. الطبعة الأولي ٢٠٠٥

٧- د. ابو حاقة. الالتزام في الشعر , دار العلم للملايين , بيروت لبنان , الطبعة الأولي

[١] محمود درويش: ديوان العصافير تموت في الجليل، ص: ٣٠٢